مبادئ الموجودات الطبيعية عند ابن سينا.

د/ عبد الله محمد الشاوش (*)
التربية يفرن – جامعة الزنتان

مستخلص:

ما نخلص إليه في هذه الدراسة أننا نجد سمات معينة لهذه الفلسفة الطبيعية، منها ما هي متداخلة مع الميتا فيزيقا، ومنها محاولتها وضع نظرية للكون، فتوضح لنا أن الفلسفة الطبيعية تبحث أساسا في الأسس العامة أكثر من بحثها في الفصيلات الفرعية. فإذا نظرنا إلى نظرية العلل مثلا وجدنا إن بحثها يدخل في صميم الطبيعيات بقدر ما يدخل في الميتا فيزيقا، وإذا بحثنا في الحركة وجدنا نفس ما نجد بالنسبة إلى العلل.

إزاء هذا كله، ولكي نلتزم بالتمييز بين الطبيعيات والفلسفة الطبيعية من جهة، وتفهم الفلسفة الطبيعية كما كان يفهمها ابن سينا، لابد من القول – إذا التزمنا بالمبدأين السابقين معا – أن البحث في الفلسفة الطبيعية – سيكون مجاله في هذه الحالة دراسة الأمور العامة والمبادئ الجوهرية للطبيعيات، أي للمتحركات المحسوسة الموجودة في عالم الحس والحركة، أي دراسة الأسس الجوهرية كما تطلق على المادة والصورة والجوهر، وعلى مبدأ الحركة في الأجسام الطبيعية بالذات، وكذلك حركة الكون، أما إذا درست الكائنات على اختلاف أنواعها، فإنها ستدرس على ضوء هذه النظرة، اي من حيث الأسس الفلسفية فحسب، دون الدخول في تفصيلات فرعية؛ لأن مجالها العلوم الطبيعية. وبذلك نكون قد ميزنا بين دراسة أقسام العلم الطبيعي عند ابن سينا سواء كانت أقساما أصلية أو فرعية، وبين الأسس والمبادئ التي تقوم عليها دراسته لهذه الأشياء. وهذا لايتنافى مع نظرة ابن سينا. ومن المؤكد أن الطبيعيات عند الشيخ الرئيس كانت تشمل كل الأقسام الأصلية والفرعية، ومما لاشك فيه أن هذه الأقسام كلها كانت داخلة في الفلسفة فالتمييز لم ينشأ إلا في عصور متأخرة. ولكن من الواضح أن هناك فرقاً يمكن لنا ملاحظته بسهولة حين نجد ابن سينا – من خلال جميع ما كتبه في العلوم يبحث في الأجسام المحسوسة وما يطرأ عليها من تغيير كالاهتمام بذكر التفصيلات الفرعية والجزئية، والأسباب العامة الأولى لما يوجد في الطبيعة، وكذلك في اللواحق لهذه الأسباب.

(*) Email:

إشكالية الدراسة :

تهتم الدراسة بما تعنيه فلسفة الطبيعة من خلال الموضوع الذي يطلق عليه ابن سينا علما طبيعيا تارة، وحكمة طبيعية تارة أخرى، وكذلك ما يقصده بالفظة الطبيعية، حيث إن توضيح هذه الأمور قد يساعد على تحديد موضوع الفلسفة الطبيعية.

أهمية الدراسة :

من الأهمية بمكان معرفة الأشياء الموجودة، إما أشياء ليست موجودة باختيارنا وفعلنا، وإما أشياء موجودة باحتيارنا وفعلنا، ويسمى النوع الأول فلسفة نظرية، ويطلق على النوع الثاني الفلسفة العملية.

أهداف الدراسة :

1- التمييز بين الطبيعيات والفلسفة الطبيعية.
2- تفهم الفلسفة الطبيعية كما كان يفهمها ابن سينا.
3- دراسة الأسس والمبادئ الجوهرية للطبيعيات.
4- دراسة الكائنات على اختلاف أنواعها من حيث الأسس الفلسفية دون الدخول في التفصيلات الفرعية.

تقسيمات الدراسة :

تم تقسيم الدراسة إلى :
- المبحث الأول : العلم الطبيعي وصلته بالعلوم الأخرى.
- المبحث الثاني : تحديد المقصود من الطبيعة.
- المبحث الثالث : أقسام العلم الطبيعي.
- المبحث الرابع : موضوع الفلسفة الطبيعية.

المبحث الأول : العلم الطبيعي وصلته بالعلوم الأخرى :

قبل تحديد المقصود بفلسفة الطبيعة عند ابن سينا، تجدر الإشارة إلى الموضوع الذي يطلق عليه الشيخ الرئيس علما طبيعيا أحيانا وحكمة طبيعية أحيانا أخرى، وكذلك ما يقصده بلفظة الطبيعة، وهذا التوضيح كفيل بمساعدتنا على تحديد موضوع الفلسفة الطبيعية. ومن ثم يذهب ابن سينا إلى أن الأشياء الموجودة، إما أشياء غير موجوده وهي بإرادتنا وفعلنا، وإما أشياء موجودة باختيارنا وفعلنا، فالنوع الأول هو ما يسمى بالفلسفة النظرية، أما النوع الثاني فيطلق على الفلسفة اعتبار الموجودات من حيث هي في الحركة تصورا، وتتعلق بمواد مخصوصه الأنواع. وإما أن تتناول اعتبار الموجودات من حيث هي مفارقة لتلك تصورا وقواما. وإما ان تتناول اعتبار الموجودات من حيث هي مفارقة قواما وتصورا.

والقسم الأول من العلوم هو العلم الطبيعي. والقسم الثاني هو العلم الرياضي. والقسم الثالث هو العلم الإلهي. إذاً فالعلوم الفلسفية هذه ما دامت الموجودات في الطبع على هذه الأقسام الثلاثة. [1].

فالعلم الطبيعي يبحث في الأمور التي تكون حدودها ووجودها متعلقين بالمادة الجسمانية والحركة، كأجرام الأفلاك، وما يوجد من الأحوال خاصا بها كالحركة والسكون، والتغير والاستحالة، والكون والفساد، فموضوعه حتما يكون الأجسام الموجودة بما هي واقعة في التغير وموصوفة بأنحاء الحركات والسكونات [2].

ومن المفيد القول إن العلم الطبيعي في نظر ابن سينا يبحث في الأجسام المحسوسة من جهة ما هو كذلك، وفي الأعراض التي تسمى ذاتية، وهي اللواحق التي تلحقه بما هو هو سوى كانت صورا أو أعراضا آو مشتقة منها [3]. وهذ ا بمعنى أن يشتمل على العلم بسائر المحسوسات من الحركات والمتحركات وما معها وما بها من الآثار المحسوسة [4]. والشيخ الرئيس يناقش مبادئ الأمور الطبيعية، ومن أي أساس تستمد. فيذهب إلى تقرير أن لكل واحد من الصناعات وخاصة النظرية منها مبادئ وموضوعات ومسائل، وهذه المبادئ هي المقدمات التي منها تبرهن تلك الصناعة، ولاتبرهن هي في تلك الصناعة، إما لكونها واضحة أو لجلالة شأنها، وإما لقلة شأنها [5]. ومن هنا نجزم أنه لا يمكن لأحد من أصحاب العلوم أن يمكنه توضيح مبادئها من جهة ما هو صاحب علمه، بل إن مبادئ كل العلوم تبين في علم ما بعد الطبيعة [6]. وبناء على هذا الأساس يرى ابن سينا أن هذه المبادئ لجزئي جزئي منها، أي لا تشمل كافتها، ففي هذه الحالة يمكن للعلم الطبيعي إثبات هذه المبادئ وإمكان تحقيق ماهيتها. أما إذا كانت الأمور الطبيعية تشترك في مبادئ أولا تعم جميعها، بمعنى مبادئ لموضوعها المشترك وكذلك لأحوالها المشتركة، وبالتالي فإن إثبات هذه المبادئ لا يدخل في صناعة الطبيعيين، وعليهم قبول وجودها وضعا وتصور ما هيتها تحقيقا [7].

نخلص القول إلى أن فيلسوفنا يسلم بأنه إذا كان هناك أمور لابد من إثبات وجودها وماهيتها، فإن بيان كل منهما لا يقع إلا في علم هو ليس تلك العلوم الجزئية، وبالتالى لابد أن يكون هذا العلم موضوعه أعم الأشياء، وهو العلم الإلهي الذي حتما موضوعه الوجود المطلق [8]. فبيان مبادئ العلوم الجزئية على صاحب العلم الكلي، وهو العلم الإلهي الذي ينظر في ما بعد الطبيعة مما يؤدي بدوره إلى ضرورة وضع المبادئ الكلية للعلم الطبيعي وضعا طالما أنه أحد العلوم الجزئية. وكل واحد من هذه العلوم الجزئية التي تتعلق ببعض الأمور والموجودات، والذي يقتصر فيها المتعلم على التسليم بالأصول والمبادئ التي يبرهن عليها في غير علمه وتكون مستعملة على سبيل الأصول الموضوعة التي يمكن البرهنة عليها في الفلسفة الأولى [9]. ومن المفيد القول إن أي علم من العلوم الجزئية لايستطيع أن يبرهن شيئا من أنواع الجنس الذي ينظر فيه، من حيث هو موجود او غير موجود وهذا من خصائص الفلسفة الأولى في معرفة وجود الشيء وماهيته [10].

ومن هنا نجد ابن سينا يدلل على وجهة نظره فيذهب إلى أن مبادئ كل علم هي مسائل في العلم الأعلى كالمساحة في الهندسه على سبيل المثال وعلى هذا الأساس تكون العلاقة بين العلم الإلهي والعلم الطبيعي [11]. ويناقش الشيخ الرئيس اعتراضا قد ينشا على هذه الوجهة من النظر كالاعتراض على العلوم الطبيعة إذا كانت تبرهن في العلم الإلهي وكانت مسائل علم الطبيعة تبرهن بالمبادئ، وتشير ابن سينا إلى أن المبدأ الطبيعي يجوز أن يكون بينا بنفسه، ويجوز أن يكون بيانه في الفلسفة الأولى بما ليس يتبين به فيها، ولكن إنما تتبين به فيها مسائل أخرى حتى يكون ما هو مقدمه في العلم الإلهي لإنتاج ذلك المبدأ [12]. ونستنتج من كل ذلك أنه لا تنشأ في أذهاننا أي شبهة عندما نرى أن لعلم الإلهي يبحث في الجسم مثلا، وكذلك العلم الطبيعي وكلاهما يبحث من زاوية معينة، بشرط أن يتسلم صاحب العلم الطبيعي عن صاحب العلم الإلهي المبادي الأولى للأجسام.

ويبين الشيخ الرئيس ذلك قائلا : إن العلم الطبيعي إذا كان موضوعه الجسم فإن بحثه في الجسم لايكون من جهة ما هو موجود، ولا من جهة ما هو جوهر، ولكن من جهة ما هو موضوع للحركة والسكون، وقبولهما [13].

ومن هنا يتبين لنا أن المبدأ العام الجوهري لموضوع العلم الطبيعي عند ابن سينا، كما هو الحال عند أرسطو، هو مبدأ الحركة، وهذ يشير الى انه ليس في الطبيعة شيء أظهر من الحركة، والحقيقة أن دراسة الطبيعة أساسا إنما هي دراسة لنظرية الحركة [14]. إلا أن وجهة نظر ابن سينا هذه كانت مثار اعتراض من جانب خصمه ابن رشد. عندما قرر أن ابن سينا أخطأ عند ما أشار إلى أن صاحب العلم الطبيعي ليس يمكنه أن يبين أن الأجسام مؤلفة من مادة وصوره وأن صاحب العلم الإلهي هو الكفيل بذلك. إلا أن ابن رشد قد ناقش وجهة نظر ابن سينا وقام بتفنيدها في جل كتبه حيث عرض في البداية وجهة نظر الإسكندر الأفروديسي التي تقول إن البرهان على مبادئ الموجودات هو من حق الفلسفة الأولى، وأن صاحب العلم الطبيعي يضعها وضعا، إذ إن الجوهر الغير متحرك هو مبدأ وعلة الأشياء الطبيعية لكي يكون البحث فيه من جانب الفلسفة الأولى كمبرر لا أكثر أما العلم الطبيعي فهو كفيل بتبيين الجزئية الأخرى [15]. إلا أن ابن رشد انتهى إلى أن هذا القول فيه إشكال، إذ إنه أراد أن مبادئ الموجودات التي ينظر فيها صاحب العلم الطبيعي هي مبادئ الجوهر الكائن الفاسد وبهذا يكون كلاما غير مستقيم، فكيف يسوغ أن الذي يقال إن الذي يتكفل بيان مبادئه العلم الطبيعي، هو الجوهر الكائن الفاسد، وهو ليس ينظر في الجوهر الكائن الفاسد فقط، بل وفي غير الكائن الفاسد؛ لأن نظره إنما هو في الموجود المتحرك سواء كان كائنا أو غيره [16].

وإذا اعتبرنا أن هذه الوجهة من النظر خاطئه في نظر ابن رشد فهي في نظر ابن سينا كذلك فابن سينا اعتقد أن مبادئ الجوهر المحسوس سواء كان أزلياً أو لا، إنما

يبرهن على وجودها صاحب الفلسفة الأولى، أي أن صاحب العلم الطبيعي يضع وضعا أن الطبيعة موجودة، ويبرهن صاحب العلم الإلهي على وجودها. وعلى هذا الأساس فإن صاحب الفلسفة الأولى إذا كان يبحث في مبادئ الجوهر بما هو جوهر، ويبين أن الجوهر المفارق هو مبدأ الجوهر الطبيعي، فإنه يصادر على ما يتبين في العلم الطبيعي [17]. ومايبدو واضحا لنا أن اشتراك هذين العلمين في النظر في مبادئ الجوهر يشير إلى أن العلم الطبيعي يبين وجود هذه المبادين من حيث هي مبادئ جوهر متحرك، وصاحب العلم الالهي ينظر فيها بما هي مبادئ للجوهر [18]. فمبادي العلمين تكون مختلفة بالجهة فقط لا بالوجود، واذا ما فهمنا هذا كان من السهل لدينا حل الإشكال الذي أدى بابن سينا الى الخطأ [19]. ومن هنا يتضح أن ابن سينا حين ذهب إلى أن البرهنة على مبادئ الطبيعيات باعتبارها من العلوم الجزئية لا تخص العلم الطبيعي، بل العلم الإلهي، ولو كان الشيخ الرئيس وابن رشد قد قالا صراحة باستقلال العلم الطبيعي عن العلم الالهي لنتج على نظرتيهما الشيء الكثير، إلا أن القول بوجوب اعتماد العلم الطبيعي على العلم الإلهي سواء بالصورة التي قال بها ابن سينا أو ابن رشد، مما يترتب عليه عدم الاستقلال للعلوم الطبيعية الجزئية الذي يؤدي الى تقدمها. مما يدفعنا إلى الانتظار عدة قرون حتى يتحقق هذا الاستقلال الذي لم يناد به الفلاسفة المتأثرون بالنظرة الأرسطية [20]. التي تقوم على أساس أن الفلسفة تشمل كل العلوم، بالتالى لابد من رد كل مبدأ جزئي إلى المبدأ الأعم منه، وهكذا حتى نصل بمبادئ العلوم الجزئية كلها إلى الفلسفة الأولى [21].ومن المفيد القول إن ابن سينا قد بحث العلاقة بين العلم الالهى والعلم الطبيعي، ومن خلال ذلك توصل إ

لى المبادئ المشتركة بين العلمين، كما قام بالحث في الصلة بين العلم الطبيعي والعلم الرياضي[22]. كما يرى ابن سينا أن السطوح والحجوم والخطوط والنقط وغيرها من موضوعات العلم الرياضي، متحققة في الأجسام الطبيعية.

وقد درس ابن سينا هذه العلاقة – كما فعل أرسطو من قبل وأوضح مدى الاتفاق والاختلاف، فالأجسام سطوحا وحجوما وخطوطا ونقطا كما هو عند الطبيعي كذلك وإذا كان هناك من حل هذا الشك بالقول بأن الطبيعي ينظر في ذوات هذه الأشياء ولا ينظر فيما يلزم ذواتها، وهذا الأمر أقرب إلى الخطأ إذ كيف لا ينظر العلم الطبيعي فيما يلزم الأجسام الطبيعية، حيث إنه إذا اقتصر على ذلك فإنه لا يكون علما مستوفياً، في حال عدم النظر في جميع لوازم الشئ. ونظرة ابن سينا في هذا المجال هي نظرة أرسطية تقوم على مبدأ المفارقة والحركة، فالعلوم النظرية إذا كانت تشمل الإلهيات والطبيعيات والرياضيات فإن العلم بالأشياء المفارقة من اختصاص العلم الإلهي، أما العلم الطبيعي إن كان ينظر إلى في أشياء لا تفارق فإنها مع هذا متحركة. والعلوم الرياضية وإن كانت تنظر في أشياء غير متحركة مثل العدد والهندسة، فإنه من الواجب أن تكون الأشياء

التي تبحث فيها غير مفارقة للهيولى، بل هي كالأشياء الموجودة في هيولى، ومن هذا المنطلق نجد أن الرياضي حين يجعل بحثه في السطوح والخطوط والنقط لايقوم ببحثها كونها أجساماً حقيقية وطبيعية فلا يدرس خواصها من جهة تعلقها بكائنات حقيقية محسوسة، لكنه يجرد هذه الحدود بعزلها عن الحركة التي بها السطوح والخطوط والنقط تختلط بالحقيقة الواقعية. فالمقدار على سبيل المثال إذا كان يعنى به العد المقوم للجسم الطبيعي أو يعني به الكمية المتصلة التي تقال على الخط والسطح المحدود، فإن كلا المعنيين لا يوجدان مفارقين للمادة وكل ما فيه أن الفرق أن المقدار بمعناه الأول بالإضافة إلى أنه لايفارق المادة فإنه مبدأ لوجود الأجسام الطبيعية [23].

فالمقادير تشارك الأشياء المتعلقة بالمادة وتباينها، فوجهة مشاركتها أنها المعاني القائمة في المادة، أما وجه المباينة أن من الصور الطبيعية مايظهر أنه في أول الأمر غير صحيح أن يكون عارضا لكل مادة كالصورة التي للماء من حيث هي ماء لاستحالتها أن توجد في المادة الحجرية من حيث هي على مزاجها ليس كالتدوير الذي يصلح أن يحل المادتين [24].

وما يفيد القول إن الشيخ الرئيس قد بين الصلة بين العلم الطبيعي والعلوم الرياضية كعلم الموسيقى وعلم الهيئة فعلم الهيئة على سبيل المثال موضوعه له صلة بموضوع العلم الطبيعي كما أن موضوعاته متصلة بالطبيعيات –أيضا– ككروية الأرض وكروية السماء، أما المبرهن بها من المقدمات على المسائل المشتركة لصاحب علم الهيئة والطبيعي فهي مختلفة فمقدمات التعليمي رصدية او هندسية اما

فمقدمات الطبيعي ماخودة مما توجبه طبيعة الجسم الطبيعي. فالطبيعي يقول إن الأرض جسم بسيط، ويستحيل أن يكون مختلفا، أي يكون في بعضه زاوية وفي بعضه خط مستقيم أو بعضه منحني وبعضه مستقيم وبعضه على خلاف ذلك تماما[25].وما نخلص إليه أن الشيخ الرئيس بعد أن ضرب الأمثلة لتحديد الصلة بين العلم الطبيعي والعلوم الرياضية، ينتهي به المطاف إلى القول بأن هذه العلوم إما تبحث عن عدد الأشياء أو عن مقدار أو شكل في الشيء. فالعدد والمقدار والشكل عوارض لجميع الأمور الطبيعية، كما يعرض مع العدد والمقدار اللواحق الذاتية بالعدد والمقدار، وإن بحث عما يعرض من أحوال العدد والمقدار في أي أمر من الأمور فإنه يتجه إلى ذلك الأمر الطبيعي. وفي كل الأحوال فإن الصناعة الطبيعية كأنها صناعة بسيطة، وإذا كانت بعض العلوم المنسوبة إلى الرياضة مما تخرج الذهن إلى الالتفات نحو المادة للمناسبة بينها وبين الطبيعيات فما الظن بالعلم الطبيعي نفسه ؟ وما أفسد ظن ذلك أن من الواجب أن يشتغل في العلم الطبيعي بالصورة ويبتعد عن المادة [26]. ومن هذا المنطلق يبدو أن الشيخ الرئيس من خلال ما طرحه ربما أراد أن يبين لنا الفرق بين

العلمين، حيث يدلل على ضرورة البحث في الهيولى والصورة بالنسبة للعلم الطبيعي، فيحال أن الطبيعي لا يعتبر الأشياء بطريقة تجريدية، بل يعتبرها في حقيقتها الطبيعية.

المبحث الثاني : المقصود من الطبيعة :

بعد أن وضح ابن سينا الصلة بين العلم الطبيعي والعلوم الأخرى وبالأخص العلم الإلهى، ينطلق إلى المقصود من الطبيعة ويفتتح قوله بأن الأجسام قد تقع عنها أفعال وحركات وبعضها صادر عن أسباب خارجة عنها توجب فيها تلك الأفعال، وبعضها الآخر يصدر عنها أفعال وحركات صدورا عن نفسها دون استناد إلى سبب ما يخيل لنا بأن تلك الحركات والأفعال الصادرة عن الأجسام قد تكون لسبب خارج غريب، وأحيانا تكون من ذاتها لا من خارج [27] والذي كون عن ذاتها. ربما لايجوز أحيانا أن يكون بعضه لازما طريقة واحدة، وبعضه مختلف الطرق والوجوه، ومع ذلك يمكن ان يكون كل واحد من الوجهين صادرا بإرادة أو بدونها كصدور الإحراق عن النار المشتعلة، مما يؤدي إلى وضع الأجسام المتحركة بهذه الحركات بواسطة قوى فيها، وهي مبادئ حركاتها وأفعالها، منها قوة تحرك وتغير مما تسبب في صدور فعل على نهج واحد بدون إراده، وقوة مع إرادة وقوة أخرى مختلفة التحريك والفعل مع إرادة، وأخرى مختلفة التحريك والفعل بدون إرادة [28] فحركة الحجر الهابط والنار الصاعدة فيكون اسم الطبيعة بحسب ذلك أي المبدأ الفاعل الذي يصدر عنه في الأجسام أفعال وحركات على طريقة واحدة وإلى جهة واحدة [29] ومن الواضح أن ابن سينا بعد أن ضرب الأمثلة وناقشها، انتهى به الرأى إلى القول بأن الطبيعة مبدأ أول لحركة ما يكون فيه وسكونه بالذات لابالعرض وهذا يكون لكل أمر ذاتى يصير للشئ من الحركة إن كانت وكذلك السكون إن كان [30] فالحركة والسكون تكون للطبيعة مفردين ومتعاقبين وكذلك للمتحرك عن ذاته لامن الخارج كالحجر النازل لا الصاعد إلى أعلى[31] وهناك حاول أن يزيد على الحد السابق، عندما قالوا إن هذا يدل على فعل الطبيعة لا على جوهرها وعليه يجب أن يزاد في حدها، ولكن في نظر ابن سينا أن ما فعلوه هو فاسد وغير محتاج إليه، فرأني ابن سينا أن القوة التي جعلوها كالجنس في رسم الطبيعة هي القوة الفاعلية، وفي تحليل ابن سينا للمقصود من الطبيعة، يرى أن الطبيعة هي مبدأ للحركة [32] أو هو سبب فاعل يصدر عنه التحريك في غيره وهو الجسم المتحرك. أما القول بالذات فهذا يعنى أمرين : الأول بالقياس المتحرك والثاني بالقياس إلى المتحرك، إذ إن الطبيعة تحرك لما يتحرك عنى ذاته لا من خارج. وهذا التفسير عند الشيخ الرئيس نراه مرتبطا لأجزاء كثيرة من فلسفته الطبيعية كرأيه في المادة والصورة، ولم يبتعد ابن سينا كثيرا حتى نراه يعود لتحليل تعريفه للطبيعة من خلال قوله إن معنى ((لا بالعرض)) يمكن حمله على وجهين : الأول بالقياس إلى الطبيعة بسبب أن الطبيعة مبدأ لما كانت حركته حركة بالحقيقة لا بالعرض. والثاني : بالقياس إلى المتحرك إذ إن الطبيعة إذا حركت شيئاً فإنما تحركه العرض؛ لأن تحركه

يكون بالذات. أما القول بأن الطبيعة مبدأ للحركة والسكون فإنه لا يعنى بالمبدأ الذي يكون لحركة دون حركة؛ لأن كل مبدأ لأي حركة كانت هو بالذات [33]. ومن هنا نجزم بأن الطبيعة لها مبدأ حركة وسكون أي بمعنى التغير وعدم التغير، وتختلف الموجودات بالنسبة لمبدا التغير وعدم التغير.

المبحث الثالث : أقسام العلم الطبيعي :

من المفيد القول إن الشيخ الرئيس يذهب إلى أن الحكمة الطبيعية منها ما يقوم مقام الأصل ومنها ما يقوم مقام الفرع، ويرى أن القسم الأصلي ينقسم إلى ثمانية أجزاء وهذا طبقا لما يراه أرسطو في هذا المجال ومن بين تلك الأجزاء :

القسم الأول، وهو الذي يدرس الأمور العامة لجميع الطبيعيات كالمادة والصورة والحركة الطبيعية، وكيفيه تعلق الحركة بالمتحركات، وذلك لغرض الوصول إلى محرك واحد غير متحرك، والذي قادر على دراسة المبادين العامة للطبيعيات [34]

واذا كانت العلوم الطبيعية من شأنها دراسة الأشياء الواقعة تحت الحواس من الأجسام وأحواله وكل ما يصدر منها من حركاتها وأفعالها وما يمكن فعله فيها من قوى وذوات غير محسوسة [35]. حيث نجد أن القسم الأول منها يقوم بدراسة المبادئ العامة لها والأسس التى تستند عليها، وهذا القسم موضوعه كتاب السماع الطبيعي لأرسطو الذي ينظر في الأسباب العامة [36]. كما يدرس القسم الثاني أحوال الأجسام التي هي أركان العالم، أما القسم الثالث فيتعرض لدراسة أحوال الكون والفساد، والقسم الرابع فينظر في العناصر الأربعة قبل أن تمتزج، كذلك القسم الخامس الذي يدرس المعادن، والقسم السادس فهو يبحث في أحوال الكائنات النباتية، أما القسم السابع فكان بحثه في طبائع الحيوان، إضافة إلى القسم الثامن الذي يشتمل على معرفة النفس والقوى الإدراكية في الحيوان [37]. ومن هنا يتضح لنا أن هذه هي أقسام الحكمة الطبيعية أو العلم الطبيعي، التي كثيرا ما ذكرها الشيخ الرئيس، متأثرا بأستاذه أرسطو ونخبة من الفلاسفة من أمثال الكندي والفارابي[38]

المبحث الرابع: موضوع الفلسفة الطبيعية :

يبد و واضحا في نظرنا أن هناك اختلافا بين موضوع الفلسفة الطبيعية والعلوم الطبيعية عند الشيخ الرئيس، وهذا مانراه من خلال كتاباته في تلك العلوم، إلا أننا لاننكر ما هو موجود في كتبه من لفظ الطبيعيات أحيانا، ولفظ الحكمة الطبيعية أحيانا أخرى، وكذلك العلوم الطبيعة في بعض الأحيان، إلا أننا لابد من التمييز بين العلم الطبيعي والفلسفة الطبيعية، ولكن رغم هذا كله ليس المقصود التمييز الواجب اتباعه في العصر الحديث تبعا للملاحظة والاختبار وترتيب القوانين من الأخص إلى الأعم بغية الوصول إلى القوانين العامة والشاملة، فالمقصود غير ذلك طالما أن ما يطلق عليه ابن سينا

((العلم الطبيعي)) الذي يختلف عما نطلقه على العلم الطبيعي في الوقت الحاضر، فالطبيعيات في الفلسفة الإسلامية تشمل البحث عن الأجسام المحسوسة سواء كانت هذه الأجسام جمادا أو نباتا أو حيوانا، وهذ الذي نطلق عليه الآن العلوم الطبيعية بفروعه المختلفة، أما علم الطبيعة فيقتصر على البحث في القوى التي يقول عنها ابن سينا إنها تغير وتحرك ويصدر عنها نهج واحد بدون إراده. وهذا يعنى أننا إذا بحثنا في الطبيعيات عند ابن سينا فحتما أن يشمل بحثنا اقسام الطبيعيات الاصلية منها والفرعية كافة كما ذكرت ذلك سلفا وإذا قلنا علم الطبيعة كان بحثنا عن جانب معين واحد طبقا لهذه الناحية، ولكننا نقصد التمييز أساسا لابين ((الطبيعيات)) و ((علم الطبيعة))، ولكن بين العلوم الطبيعية والفلسفة الطبيعية. ومن هنا نجد سمات معينة لهذه الفلسفة الطبيعية كتداخلها مع الميتافيزيقا ومحاولتها وضع نظرية للكون، وتوضح لنا أن الفلسفة الطبيعية تبحث أساسا في الأسس العامة أكثر من بحثها في التفصيلات الفرعية. خلاصة هذا كله ولكي نلتزم بالطبيعيات والفلسفة الطبيعية من جهة، ونفهم الفلسفة الطبيعية كما كان يفهمها ابن سينا، لابد من القول – إذا التزمنا بالمبدأين السابقين معا – إن البحث في الفلسفة الطبيعية سيكون مجاله هو دراسة الأمور العامة والمبادئ الجوهرية للطبيعيات، وهي المتحركات المحسوسة الموجودة في عالم الحس والحركة، أي دراسة الأسس الجوهرية كما نطلقها على سبيل المثال على المادة والصورة والجوهر، أو على مبدأ الحركة في الأشياء الطبيعية بالذات، وكذلك على حركة الكون وغيره، أما إذا درست الكائنات على اختلاف أنواعها، فإن دراستها تكون على ضوء هذه النظرة، بمعنى ستدرس من حيث الأسس الفلسفية، دون أن تدخل في تفصيلات فرعية؛ لأن مجالها هو العلوم الطبيعية. وبذلك نكون قد استطعنا التمييز بين دراسة أقسام العلم الطبيعي عند الشيخ الرئيس سواء كانت أقساما أصلية أو فرعية، وبين الأسس والمبادئ التي تقوم علها دراسته لهذه الأشياء. وكل هذا في نظرنا لايتنافى مع نظرة ابن سينا، فالصحيح أن الطبيعيات عند ابن سينا كانت تشمل كل الأقسام الأصلية والفرعية سابقة الذكر. والصحيح –أيضاً– أن هذه الأقسام كلها كانت داخلة في الفلسفة إذ التمييز لم ينشأ إلا في عصور متأخرة. ولكن ما نلاحظه أن ثم فرقاً يمكن ملاحظته بسهولة عندما نجد ابن سينا – من خلال مؤلفاته في العلوم أنه يبحث في الأجسام المحسوسة وما يلحقها من تغير كاهتمامه بذكر التفصيلات الفرعية والجزئية، وحين نجده يبحث عن أعم المقومات التي تميز هذه الأشياء، أي المبادئ العامة الفلسفية للمتحركات الموجودة في عالم الحس والحركة والأسباب العامة الأولى لما يوجد بالطبيعة، وفي اللواحق العامة لهذه الأسباب السالفة الذكر.

الخاتمـــــة :

ما من قارئ لفلسفة ابن سينا الطبيعية إلا وجد أن الأسس الميتافيزيقية التي تقوم عليها آراؤه توضح لنا كيف أن الميتافيزيقا تلقي بظلها على فلسفة ابن سينا الطبيعية مع أن هناك انفصالا بين مجال كل منهما، ولكنه صحيح أن هناك اتصالا بينهما، بحيث يبدوان في فلسفة ابن سينا الطبيعية، أن أفكار ابن سينا المتعلقة بمبادئ الموجودات الطبيعية يشوبها الغموض في بعض الأحيان. ومن يطلع على مباحثه في كل من الطبيعيات والإلهيات يدرك صدق ما نقوله، ولو كان ابن سينا قد رأى في هذا المجال بالذات أن العلم الطبيعي لابد له من حيث الأمور الجوهرية الخاصة به حتى ما يبدو أنه متعلق في ظاهره بالأمور الإلهية، لكان هذا أجدى له، إلا أنه لم يفعل ذلك، وما نراه أقرب إلى الصواب أنه لو كان قد فعل ذلك لكان قد حقق فائدة للعلم الطبيعي، ولحدث تقدم نحو الاستقلال النسبي عن الفلسفة بمعناها الميتافيزيقى، كما نود أن نشير إلى أن الشيخ الرئيس إذا كان يتابع أرسطو في كثير من النتائج التي توصل إليها، إلا أنه يختلف عنه في أمر جوهريا، حيث نجد أن هناك تفضيلا للصورة على المادة لدرجة شعورنا بأن الصورة هي كل شيئ، وهذا ما أفسد عليه بعض جوانب التطبيقات التي رتبها على القول بالمادة والصورة، وكيف أن المادة شيئ غير محدد والصورة تعطي التحديد للأولى. فنظرته هذه تعتبر نظرة كيفية وليست كمية، أي تعطي وصفا ولكنها لاتستطيع تقديم تفسير محدد أكثر دقة من غيره. كما نلاحظ أن هناك تأكيداً لابن سينا على وجود أسباب للموجودات بواسطتها يمكن التعرف على أفعالها ومن جانبنا نعتبر هذا التأكيد سليماً ، فالسببية رغم كل ما يوجه لها من نقد، فهي عنصر مهم في العلم، وهذا التأكيد من جانب ابن سينا له مزاياه، إلا أن هذه المزايا قد تتلاشى إذا سرنا مع ابن سينا إلى آخر المطاف في فلسفته الطبيعية.

قائمة الهوامش :

1–ابن سينا : الشفاء المنطق : المدخل ص12– 13 – 14، الشفاء : الالهيات، ص 3–4.
2– ابن سينا: الشفاء – النجاة ص 98، 208.
3– ابن سينا : الشفاء – الطبيعيات ص3.
4– ابو البركات البغدادي : المعتبر في الحكمة – الطبيعيات ص4.
5– ابن سينا : الشفاء – المنطق – البرهان ص 155.
6– المصدر السابق ص 194.
7– ابن سينا : الشفاء – الطبيعيات ص3 –13.
8– صدر الدين الشيرازي : تعليقات على كتاب الشفاء ص8.
9– ابن سينا : النجاة ص 98، عيون الحكمة ص 17– 19.
10– ابن رشد : تفسير ما بعد الطبيعة ص 703.
11– ابن سينا : الشفاء – الإلهيات ص15، الشيرازي : تعليقات على كتاب الشفاء ص13.
12– ابن سينا : الشفاء – الإلهيات ص 19، وأبو البركات البغدادي : المعتبر في الحكمة – الطبيعيات ص4.
13 – صدر الدين الشيرازي : تعليقات على كتاب الشفاء ص17– 18.
14– ابن سينا : الشفاء – الالهيات ص10، رسالة في الاجرام العلوية ص41.
15– ابن رشد : تلخيص ما بعد الطبيعة ص 41، تفسير ما بعد الطبيعة ج2، ص508.
16– ابن رشد : تفسير ما بعد الطبيعة ج3، ص 1422.
17– المصدر السابق ج3، ص 1424.
18– المصدر السابق ج3، ص 1425– 1426.
19– المصدر السابق ج3، 1436.
20– ابن سينا : الدراسات الطبيعية، ص 1436.
21– المصدر السابق، نفس الصفحة.
22– ابن سينا : الشفاء –الالهيات، مصدر سابق ص 310 –324.
23– ابن سينا : الشفاء – الإلهيات،ف2، ص11 –12.
24– ابن سينا : الشفاء – الطبيعيات، ص 18 –19.
25– ابن سينا : الشفاء – الطبيعيات، ف8، ص 18، صدر الدين الشيرازي : تطبيقات على كتاب الشفاء ص17– 18.
26– ابن سينا : الشفاء – الطبيعيات، مصدر سابق ص، ف8، ص 8–19.
27– ابن سينا : مصدر سابق، ف7، ص 16.

28– ابن سينا : الشفاء – الطبيعيات، مصدر سابق، ف5، ص 12 – 13.
29– ابن سينا : الشفاء الطبيعيات، مصدر سابق، ف5، ص13، ابو البركات الغدادي : المعتبر في الحكمة، ص5.
30 – ابن سينا : الشفاء –الطبيعيات، مصدر سابق، ف5، ص 13، ورسالة الحدود، ص21.
31 ابن سينا : المباحثات، ص 165.
32– ابن سينا : الشفاء – الطبيعيات، مصدر سابق، ص ف5، 14.
33– ابن سينا : الشفاء –الطبيعيات، ف5، ص 14–15.
34– ابن سينا : رسالة في أقسام العلوم العقليه، ص 108.
35 – ابو البركات البغدادي : المعتبر في الحكمة، مصدر سابق، ص 6.
36– ابن رشد : تلخيص السماع الطبيعي، ص 6.
37– ابن سينا : رسالة في أقسام العلوم العقلية، ص 109– 111.
38– الكندي : رسالة في كمية كتب أرسطو وما يحتاج اليه في تحصيل الفلسفة، ص 382.